جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
إيتاى الهاروى

الإعجاز الأدبى
فى
سورة لقمان

إعداد
د / سالم عواد السيد حشيش
قسم الأدب والنقد

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد

فإن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نوراً وهداية ودستوراً لحياة الناس كافة ودعاهم إلى الإيمان به والعمل بماجاء فيه من أحكام ولكن الناس كفروا به إلا قليلاً منهم ..

وقال الكافرون هذا سحر مفترى وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً .. وحينئذ جاء التحدى من الله تعالى للمعاندين والجاحدين طالباً أن يأتوا بمثله أو بأقل قدر منه وهو آية فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً ..

لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وقد بلغوا الغاية فى الفصاحة والبيان وكان القرآن الكريم معجزة من جنس ماعندهم وكان بمقدورهم أن يأتوا بمثله لو كان القرآن من عند محمد صلى من عليه وسلم - فى ظنهم - وكان عليهم أن يفعلوا مافعل حتى يبطل السحر كما ظنوا... ولكن هيهات فقد عجزوا وضلوا وتاهوا وفشلت محاولات الكثيرين منهم فى الإتيان بمثله وحينئذ لم يجدوا لله وسيلة للقضاء على الإسلام إلا السنان بعد أن عجزت الألسنة جميعاً... ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» وبقى الإسلام دين الله فى أرضه وبقى القرآن الكريم معجزته تتحدى على مدى الأيام ونبراساً وهداية للعالمين يقبس منه المسلمون ويتفيئون

ظلاله وينعمون بما فيه من خير الهداية ونور اليقين وإعجاز البيان وبلاغة القرآن التى انتهى دونها سائر البلغاء ليذعنوا بالغلب والتفوق للقرآن ..

وفى هذا البحث محاولة لنلمس بعض وجوه الإعجاز الأدبى في سورة لقمان والتى أرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما أردت إنه تعالى نعم الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

د. سالم عواد السيد حشيش

١١ شوال ١٤١٦ هـ

١ مارس ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة لقمان مكية إلا ثلاث آيات منها هى قوله تعالى : «ولو أن مافى الأرض م أقلام... إلى تمام الثلاث» فإنها نزلت بالمدينة .

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما أتم هجرته إلى المدينة المنورة قال له أحبار اليهود: بلغنا أنك تقول : «وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً أعنيتنا أم قومك؟ فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : كلا عنيت !! فقال الأحبار: إنك تعلم أننا أوتينا التوراة وفيها بيان كل شئ فقال لهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ذلك فى علم الله تعالى قليل ... فأنزل الله الآيات.. (١).

---

(١) السورة مفتتحة بالبسملة - والبسملة قسم من الله تعالى أقسمه لعباده «أن ماوضعته لكم فى هذه الصورة حق، وإنه سبحانه وتعالى قد ضمن لعباده كل مافيها بلطفه وبره جلت عظمته .

فإذا قلبنا النظر فى وجوه إعرابها وجدنا العلماء قد اختلفوا فيه ...

وأول الاختلاف كان في معنى دخول الباء عليهم: هل دخلت على معنى الأمر ؟ وبذلك يكون التقدير: ابدأ باسم الله وهذان القولان قال الفراء بالأول وقال الزجاج بالثانى و«بسم» فى موضع نصب علي التأويلين .

وقيل المعنى: إبتدائى: بسم الله، و«بسم الله» في موضع نصب على التأويلين ..

وقيل: الخبر محذوف... أى ابتدائى مستقر أو ثابت بسم الله، فإذا أظهرته كان بسم الله في موضع نصب بـ.. ثابت أو مستقر وكان بمنزلة قولك : «زيد في الدار» .

وسبب نزول السورة أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه فنزلت(١).

ومناسبتها لما قبلها التناسب فى كثير من المعانى والأحكام مع المؤاخاة في الافتتاح.. وآلم - مثل حديث السورتين عن الخلق والبعث.. (٢) حيث قال تعالى فى سورة الروم : «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وقال فى سورة لقمان «ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة» (٣).

والبسملة تعددت الآراء فيها هل هى آية أم لا ؟

وأصح الأقوال وماتميل إليه النفس أنها آية من كل سورة وورد فى فضلها الكثير من الآثار التى تدل على فضلها وخيرهها وبرها وأثرها العظيم على من يتعود النطق بها وخصوصاً فى مفتتح الأعمال. كما دلت على انتقاص الأعمال التى لاتتصدرهاالبسملة من ناحية الخير والبر فيها (٤).

قوله تعالي «آلم» قد ورد في تفسيرها أقوال متعددة منها :

أنها سر الله تعالى فى القرآن الكريم، ولله تعالى فى كل كتاب من كتبه سر، فهى من المتشابه الذى إنفرد الله تعالى بعلمه ولايجوز لنا أن نتكلم فيها ولَكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت وقيل:

---

(١) روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى الألوسى حـ١٩ ص٦٤- دار الفكر. بيروت ط١٩٧٨م .

(٢) السابق ص٦٥ .

(٣) السابق ص٦٥ .

(٤) تفسير القرطبى حـ١ ص .

إن الله تعالي أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ماشاء وأطلعكم على ماشاء، فأما مااستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون ومابكل انقرآن تعلمون ولابكل ماتعلمون تعملون .

قال أبو بكر: فهذا يوضح أن حروفاً من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم اختباراً من الله عز وجل وامتحاناً، فمن آمن بها أثيب وسعد ومن كفر وشك أثم وبعد[١].

«تلك» ت«يشار بها إلى المؤنثه- واللام : للبعد والكاف: للخطاب- آيات - وهى جمع آية، وأما الآية فهى العلامة، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وانفصاله، أى هى بائنه من أختها ومنفردة ..

وقيل سميت آية لأنها جماعة من حروف القرآن وطائفة منه[٢]. «الكتاب» وهو القرآن الكريم «أل» فيه للعهد أى الكتاب المعهود المتعارف لديك .

والحكيم «أى ذى الحكمة - المحكم الذى لاخلل فيه ولاتناقض. «هدى ورحمة» بما تحوى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتباع سبل الرشاد واجتناب مسالك الغى والفساد، واتباع كل طريق يؤدى إلى الفلاح .

«وهدى ورحمة» بالنصب على الحال- قرأ حمزة «هدى ورحمة» بالرفع فى وجهين . أحدهما على إضمار مبتدأ لأنه أول آية والآخر : خبر تلك ...

---

(١) القرطبى حـ١ص٢٠١

(٢) السابق حـ١ س٣ .

والمحسنين - مفردها «محسن» ومن صفات المحسن أنه يعبد الله كأنه يرى الله تعالى، فإن لم يكن يراه، فإنه يعتقد أنه واقع تحت نظر الله تعالي ولذا كان الناس والمحسنون بصفة خاصة فى أمرهم كذلك فلا شك أنهم يأتمرون بأمر الله وينتهون عما نهى الله تعالى عنه ومن أجل هذا فإن الله تعالى وصفهم في القرآن الكريم بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون .

ولاشك فى أن من يكون عمله على هذه الصورة وعقيدته كذلك فإنه يكون محسناً قولاً وعملاً واعتقاداً وتلك صورة مثلى للإنسان المسلم المهتدى المطيع لأمر الله تعالى ..

(ومن الناس) بعض من الناس وهم البشر «من يشترى» الاشتراء هو مبادلة مال بمقابل من نقول أو عقار أو منفعة كأنه قيل: من الناس هاد مهدى ومنهم ضال مضل»[1].

وفى الآية صورة بيانية «لهو الحديث» كل ماشغلك عن عبادة الله تعالى وذكره من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء نحوها... وقيل هو مايعم كل ذلك .

ونزلت هذه الآية فى النضر بن الحرث، وذلك أنه اشترى قينة فكان لايسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول :لها أطعميه واسقيه وغنيه ويقول هو له: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت وروى أيضاً أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيتحرى أخبار الأعاجم أو كتبهم فيرويها

---

(١) روح المعانى حـ٩- ص٦٦ .

ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً يحدث الناس عن عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسنفديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن الكريم ...

أما الغناء فقد ورد فيه الكثير من الآثار منها قوله صلى الله عليه وسلم: الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل[١].

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: مارفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله تعالى إليه شيطانين يجلسان على منكبين يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك»[٢].

ويجوز القليل منه فى أوقات الفرح كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة كما كان فى أعمال حفر الخندق يوم غزوة الأحزاب وحدو أنجشه[٣].

قال ابن العربى: فأما طبل الحرب فلا حرج فيه لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو والدف مباح ..

قال القشيرى: ضرب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة فهم أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح فكن يضربن ويقلن: نحن بنات النجار، حبذا محمد من جار، وقد قيل: إن الطبل فى النكاح كالدف وكذلك الآلات المشهرة

(١، ٢) روح المعانى حـ١٩ ص٦٧ .

(٣) القرطبى حـ٢ ص٥٣١١ .

للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رفث[١].

ويمكن القول استنباطاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الشعر كلام حسن وقبيح فخذ الحسن ودع القبيح»[٢].

ولما كان الشعر أساس الغناء وعليه يقوم فإنه أى الغناء ينقاس على الشعر من حيث الكم عليه من ناحية الأثر الذى يتركه أو الغرض الذى يراد من ورائه.

وعلى هذا فإذا كان الغناء خالياً من الرفث ولايدعو إلي إذكاء روح المعاصى بين الناس، بل كان يدعو إلى مكارم الأخلاق والمثل وبث الحماس والحمية فى النفوس فلا شئ فيه ..

مصداقاً لقول النبى صلى الله عليه وسلم «إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، ومالم يوافق الحق منه فلا خير فيه».

وقال عليه الصلاة والسلام : «إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب»[٣] وقالت عائشة : «الشعر فيه كلام حسن وقبيح فخذ الحسن واترك القبيح».

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلي أبى موسى الأشعرى: مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل علي معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب.

---

(١) السابق والصفحة.

(٢) العمدة أبن رشيق حـ١ ص٢٠.

(٣) العمدة - ابن رشيق حـ١ ص٢٧.

وقيل كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجادوسمحائها الأجواد لتهز أنفسها إلى الكرام وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به أى: فطنوا »[1].

وبذا يمكن القول قياساً على ماسبق إن الغناء إن حض على مكارم الأخلاق والمعالى وحث على الجهاد في سبيل الله أو مجاهدة النفس فلا شئ فيه وإن كان فيه مجون وخلاعه وبعد عن الأخلاق فهو مانهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قياساً على الشعر الذى هو أساسه وعليه ينقاس ..

ويؤكد ذلك فيما أرى قول الله تعالى «ليضل عن سبيل الله» وبذا تظهر الآيات أن قصد المشترى للهو الحديث هو إضلال الناس عن سبيل الله تعالى والذى هو الدين فى عمومه .. وبغير علم : فى الغناء والمزامير وإيثار للباطل على الحق «ويتخذها هزواً» أى الآيات حيث يكون منه استهزاء بها وإنكار لها وتهوين من شأنها وإيثار الباطل عليها فيكون جزاء ذلك كما قال الله تعالي: «أولئك لهم عذاب مهين» .

حيث يصليهم الله العذاب بفاسد أعمالهم فيكون ذلك إهانة لهم وتحقيراً لشأنهم وحطاً من قدرهم أمام سواهم من البشر والحال في الإنسان أن يكرم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) السابق ص٢٠ .

ويؤكد ماسبق من قياس الغناء بالشعر وبيان الهدف من كل ذلك قوله تعالي: «وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم» .

والتلاوة هى القراءة للقرآن الكريم والضمير فى (عليه) يعود على المشترى للهو الحديث ، ويعم كل من يقوم بهذا الإثم، حين يعرض عن الاستماع إلى ذكر الله تعالى ويكون حاله فى ذلك حال من أصيب بالصم ولاجزاء له عند الله تعالى إلا العذاب الأليم وهو جزاء كل مستكبر أثيم، وقوله تعالي «ولى» أعرض عن السماع للقرآن بصورة منكرة فيها سرعة الإبتعاد وقوة الانسلاخ عن أن يصل إلى أذنه صوت القرآن الكريم .

والقرآن يدل على تلك المعانى من خلال الألفاظ الموحية المؤدية للمعنى فى قوة واقتدار وهى يذلك مساوقة للمعنى لأنها من عند الله جل وعلا وهى آية التحدى لقوم بلغوا الغاية فى الفصاحة والبلاغة وفى قوله تعالي «فبشره بعذاب أليم» صورة بيانية، نزل التضاد بين التبشير والإنذار منزلة التناسب بينهما ، ثم شبه الإنذار بالتبشير بجامع السرور المترتب على كل منهما تحقيقاً فى التبشير وتنزيلاً فى الإنذار ثم استعير التبشير للإنذار واشتق منه بشر بمعنى أنذر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية والقرينة المانعة هى عذاب وهو مجرور بالباء ومتعلق بالفعل الذى وقعت فيه الاستعارة، لأن التبشير بمعناه الحقيقى وهو الإخبار بما يسر لايتعدى إلى العذاب

فـدل ذلك على أن المراد بالفـعل بشـر: مـعنى يناسب العـذاب وهو الإنذار أى الإخبار بما يسوء»[١].

وفي الآيات السابقة بيان لحال الكافرين وتصوير لما يلاقونه من أهوال العذاب .

-٣-

أمـا الآيات التـاليـة فـهى بيـان لحـال المؤمنين إثر بيـان حـال الكافـرين للفت الأنظار إلى مـايجب أن يكون عليـه خلق الإنسـان العـاقل. لبـيـان أثر الكرامـة التي أكـرمـهم الله تعـالى بهـا والتى استحقوها بإيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره فكانت جنات النعيم مثواهم على سبيل، الإخلاد والبقاء دون النظر إلى زمن محدد لبقائهم في أفيائها وبين جنباتها، وذلك وعد الله تعالى لهم، «إن الله لايخلف الميعاد» .

ويقول القائل» وبضدها تتميز الأشياء» .

ولاشك فى أن اقتران صور المؤمنين بما ينالون من نعيم مقيم فى جنات عدن يبقون فيها خالدين مخلدين - فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فـيـه خـالدون»[٢] عـاليـهم ثيـاب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً»[٣].

---

(١) البلاغة الوافية د. محمود شيخون ١٣٨ ط٣ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٧١ .

(٣) سورة الإنسان الآية ٢١ .

وهذه الصورة المثلى يقابلها ويناظرها تصوير القرآن الكريم لما يناله الكافرون من عذاب أليم مقيم وذلك لكى تزداد الصور إيضاحاً وبياناً ويكون ذلك مدعاة لبعد الإنسان عن اقتراف مايوجب عذابه والإقبال على مايوجب سعادته ونعيمه من طاعات الله تعالى (وهو العزيز) أى الغالب الذى لايمنعه مانع من تنفيذ ماوعد (الحكيم) الذى تأتى أفعاله كلها من منطلق الحكمة ..

ثم تأتى الآيات التالية دالة على قدرة الله تعالى وعزته، ولاشك فى أن قدرة الله تعالى ظاهرة للعيان وليست بحاجة إلى إيراد الأدلة عليها، فالكون كله بما يحوى من مظاهر كونية دليل على اتصافه تعالى بجميع صفات الكمال يقول الله تعالي: «هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه»[1].

«خلقث السموات بغير عمد ترونها، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم، وبث فيه من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم»[2].

وهى مظاهر ليست فى حاجة إلي إيضاح وتفسير لأنها ظاهرة للعيان لايجحدها إلا من عمى قلبه وصد عن سبيل الله ..

ثم يكون التحدى الأكبر في قوله تعالي: «هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه - بل الظالمون فى ضلال مبين» .

---

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٠ .

وفى القرآن الكريم آيات عدة فيها دعوة إلي التحدى وقرع العقول والقلوب ولفت الأنظار ولى الأعناق يقول الله تعالي: أفمن يخلق كما لايخلق أفلا تذكرون»[١].. ويقول الله تعالى: «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له...

ولايقف الأمر عند هذا الحد بل تكون قمة التحدى فى قوله تعالي: «وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه!! لماذا ؟ ضعف الطالب والمطلوب.. [٢] أى الإله المعبود من دون الله والذباب وما سلبه منه .

فأى إله هذا ؟؟؟ أى الذى يعبدونه من دون الله تعالى وهو عاجز عن خلق الذباب، بل إنه عاجز عن استنقاذ مايسلبه الذباب منه!!

وفى هذا التعبير أيضاً لفت للأنظار ولى للأعناق كى تفئ الأناسى إلى أمر الله تعالى وتكرم نفسها وتنزه عقلها أن تسجد لغير خالقها ورازقهاه ومدبر أمرها فإن فعلوا ذلك فقد رشدوا وإن لم يستجيبوا للحق فقد ظلموا أنفسهم وتجاوزوا حدودهم وتاهوا فى بيداء الجهالة والضلال، والتعبير بالظاهر بدل المضمر (الظالمون) لزيادة تقريعهم وإظهاراً لشنيع جرمهم، لأنه بإشراكهم قد وضعوا الشئ فى غير موضعه وتعدوا حدود الله تعالي وظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ..

-٤-

(ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك بالنقل بعد الإشارة إلى بطلانه بالفعل[٣].

---

(١) سورة النمل الآية ١٧ .

(٢) سورة الحج الآية ص٧٣ .

(٣) روح المعانى تفسير القرآن الكريم حـ٩ ص٨٢، ٨٣ .

(ولقمان) إسم أعجمى لاعربى مشتق من اللقم واختلف الناس فيه[١] وكان زمانه بين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام[١] وكان رجلاً صالحاً حكيماً ولم يكن نبياً[٢].

(والواو) للقسم وكذا اللام «وقد» تدل على تحقيق حدوث الفعل متى كان ماضياً .

(آتينا) أعطينا - لقمان - اختلف الناس في شخصه وفى صنعته وآخر الأقوال أنه كان رجلاً صالحاً حكيماً ولم يكن نبياً - الحكمة - هى المنطق الذى يتعظ به ويتناقله الناس لذلك وقيل: إتفاق الشئ علماً وعملاً، وقيل كمال حاصل باستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها[٣].

(أن اشكر لله) أى اجعل شكرك لله تعالى من منطلق الحكمة فإنك إن فعلت ذلك كنت حكيماً، لما لله تعالى من أياد لايسديها سواه جل وعلا فهو حقيق بالشكر جدير بالحمد والثناء ولاينفع الله تعالى شكره من عباده ولايضره تعالى عدمه لأن الحاصل أن شكر الإنسان مردود عليه قال الله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» ولهذا قال تعالى «ومن شكر فإنما يشكر لنفسه» أى أن نتيجة الشكر تكون لذات الشاكر دون سواه لأن الله تعالى تكفل بزيادة نعمة الشاركين (ومن كفر) جحد وستر واستخف بنعم الله تعالى (فإن الله غنى)

(١، ٢) روح المعانى تفسير القرآنالكريم حـ٩ ص٨٢، ٨٣ .

(٣) المعجم الوجيز .

ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بعظمته جلت قدرته (غنى) غير محتاج إلي خلقه وهم فى أشد الحاجة إليه (حميد) أى محمود عند خلقه ممن أوتوا الحكمة ونور البصيرة.

(وإذ قال لقمان لابنه) اختلف في اسمه فهو «تاران أو «ماثان» ، وقيل «أنعم» وقيل «أشكم» وقيل «مشكم»[1] إذ - معمول - لـ«اذكر محذوفاً»[2].

(وهو يعظه) يسدي إليه النصح مقترناً بالتخويف والزجر (يابنى) لما كان الخطاب من والد لولده كان التصغير للدلالة علي الحنو والعطف والمحبة لأن الوالدين عموماً يريان الأبناء صغاراً دائماً وإن كبروا .

(لاتشرك بالله) لاتجعل الله تعالى شريكاً - لافى العبادة تعالي الله عن ذكر علواً كبيراً، ولافى العمل بأن يكون الملك كله خالصاً لله تعاى لارياء فيه ولاسمعة وكأن سائلاً سأل قائلاً لماذا ؟ فكان الجواب على وجه التأكيد إن الشرك لظلم عظيم» .

واختلف فيه فقيل: إنه من كلام لقمان وقيل: هو خبر من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى[3].

(١، ٢) روح المعانى حـ١٩ص٨٤ .

(٣) القرطبى حـ٧ ص٥٣١٩ .

وكون الشرك ظلماً لما فيه من وضع الشئ في غير موضعه وكونه عظماً لما فيه من التسوية بين من لانعمة إلا منه سبحانه وتعالى ومن لانعمة له أصلاً[١].

(ووصينا الإنسان بوالديه) هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان - قيل إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه أخبر الله به عنه، أى قال لقمان لابنه لاتشرك بالله ولاتطع فى الشرك والديك[٢] وقد قرن الله، سبحانه وتعالى بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين كما قال الله تعالي : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه بالوالدين إحساناً»[٣] و حملته أمه وهناً علي وهن» ضعفاً على ضعف وضعفاً حال من أمه، أو الضمير فى حملته .

«وفصاله» أى فطامه وانقطاع رضاعته (فى عامين) أى مدة الإرضاع عامين ذهب إلى ذلك الشافعى والإمام أحمد وأبو يوسف ومحمد وأبو حنيفة يرى أن مدة الرضاع الذى يتعلق بالتحريم ثلاثون شهراً[٤].

«أن اشكر لى ولولديك» قلنا له أن اشكر لى ولوالديك قبل: الشكر لله علي نعمة الإيمان وللوالدين على نعمة التربية، قال سفيان بن عيينه: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه فى أدبار الصلوات فقد شكرهما[٥].

---

(١) روح المعانى حـ١٤ ص٨٥ .

(٢) القرطبى حـ٧ص٥٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير حـ٣ ص٤٤٤ .

(٤) روح المعانى حـ١٩ ص٨٦ .

(٥) القرطبى حـ٧ص٥٣٢٢ .

«إلى المصير» تعليل لوجوب الإمتثال للأمر، أى إلي الرجوع لاإلى غيرى فأجازيك على ماصدر عنك مما يخالف أمرى[١].

«وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما» قال سعد بن مالك نزلت هذه الآية فى شأنى قال: كنت رجلاً باراً بأمى فلما أسلمت قالت ياسعد ماهذا الذى أراك أحدثت؟ لتدعن دينك الذى دخلت فيه أو لاآكل ولاأشرب حتى أموت فتعيربى فيقال لك: ياقاتل أمه ...

فقلت لاتفعلى ياأمه فإنى لاأدع دينى هذا الشئ فمكثت يوماً فلما رأيت ذلك قلت ياأمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت دينى هذا لشئ فإن شئت فكلى وإن شئت لاتأكلى فأكلت ..

ثم كان أمره تعالى له بحسن مصاحبة الوالدين رغم مقاساة الابن منهما «وصاحبهما فى الدنيا معروفاً» أى باللين والحسنى واللطف مدة بقائهما في الدنيا جزاء ماقدما «واتبع سبيل من أناب إلىّ».

أمر من الله تعالي باتباع الطريق الأمثل وهو طريق الهدى والإيمان «ثم إلى مرجعكم» أى إلى الله عودة الإنسان بعد نهاية الحياة «فأنبئكم بما كنتم تعلمون» .

يقولون «مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولايظلم ربك أحداً»[٢].

---

(١) روح المعانى حـ١٩ ص٨٧ .

(٢) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله.. » في هذه الآية يبين الله تعالى أن كل شئ بيده تعالى فمهما قل شأن الذنب فالله تعالى يعلمه قال الله تعالي: «وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافي البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين» (١) فكل مايقدمه الإنسان من عمل يعلم الله.. .فمن يعمل ميقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» (٢).

ولذا قال الله تعالي: «إن الله لطيف خبير» أى لطيف العلم فلا تخفي عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت (خبير) بدبيب النمل في الليل البهيم ..

ثم تتوجه الآيات بالإرشاد والتوجيه إلي ولد لقمان ومنه ينسحب الأمر والإرشاد والتوحيه إلى كل مكلف يقول الله تعالى: «يابنى أقم الصلاة» يعنى تأديتها على أكمل وجه بحدودها وفروضها وأوقاتها » .

والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين - كما أنه ليس بين الرجل وبين الكفر سوى ترك الصلاة (وأمر بالمعروف) أى ارشد ووجه سواك إلى الخير وكل أمر حسن وجميل (وانه عن المنكر) نهى عن الشئ نهياً زجر ويقال نهى الله عن كذا : حرمه (المنكر) كل ماتحكم العقول الصحيحة بقبحه أو يقبحه الشرع أو يحرمه أو يكرهه ..

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٢) سوررة الزلزلة الآية ٧ - ٨.

(واصبر علي ماأصابك) أمره بالصبر والتحمل والجلد لمايصيبه من أذى لقاء قيامه بذلك في شخصه، أو ماينالله من أذى الناس حين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر(إن ذلك من عزم الأمور) .

أى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما عزمه الله تعالى وأمر به-(ولاتصعر خدك للناس) أى لاتعرض عنهم تكبراً عليهم (ولاتمش في الأرض مرحاً) أى كبراً وتيهاً وتبختراً على الناس (إن الله لايحب كل مختال فخور» تعليل للنهى أو موجبه .

والمختال من الخيلاء وهو التبختر فى المشى كبراً، والفخور من الفخر وهو المباهاة فى الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه وخلاف ذلك .

(واقصد فى مشيك» أى توسط في سيرك، بين الإسراع والبطء قال ابن مسعود: كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشياً بين ذلك، وكأنه أريد التوسط بين المشيين السريع والبطئ (واغضض من صوتك) أى انقض منه وأقصر .

قال الشاعر: فغض الطرف إنك من نمير ....

والحكمة فى غض الصوت المأمور به أن أوقر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه .

(إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) تنفيراً له عن رفع الصوت وقد شبه الرافعين أصواتهم بالحمير، وهو مثل بليغ فى الذم والشتيمة أى أقبحها وأوحشها ...

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً» .

وقال سفيان الثورى: صياح كل شئ تسبيح إلا نهيق الحمير»[١] واللام فيه للتأكيد ووجد الصوت وإن كان مضافاً إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل علي الكثرة[٢] .

-٥-

ثم إنتقلت الآيات إلى التحدث عن النعم التى أسبغها الله تعالي على عباده .. قال الله تعالى: «ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات ومافي الأرض وأسبغ عليم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير» .

في الآية لفت لنظر الإنسان إلى التفكير فى آلاء الله تعالى وهى كما وردت الآية تسخير مافى السموات ومافى الأرض لمنفعة الإنسان وغمر الإنسان في الحياة بشتى نعم الله تعالى التى لاتحصى قال الله تعالي «وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها»[٣].

فواجب ذى العقل أن ينظر حوله بعقل مفتوح ونظر سديد ليرى نعم الله تعالى التى لاتعد ولاتحصى، وهى واجب كل ذى عقل وليس للإنسان العاقل حق الجدال فيما يتعلق بذاته تعالى خصوصاً إذا كان هذا الجدال بالصورة التى بينتها الآية بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير» لأنه إن فعل ذلك يكون قد ضل وحاد عن الصرواط السوى وضاع منه الطريق وفي تصوير لضلالهم وكفرهم وعنادهم

---

(١) القرطبى حـ٧ ص٥٣٢٨، ٥٣٢٩.

(٢) روح المعانى جـ١٩ ص٩٥ .

(٣) سورة النحل الآية ١٨ .

وحيدتهم عن الطريق المستقيم يقول تعالى: «وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا» .

ولم يكن أباؤهم إلا علي الضلال وعبادة الأصنام التى لاتضر ولاتنفع، ولاتعى نعمة ولاتسبغ كما أسبغ الله تعالى عليهم .. ألم تكن حجارة صنعوها بأيديهم ونصبوها بأنفسهم لتكون محل العبادة والتقديس لهم فأين عقولهم؟ وأين هم من أصنامهم؟ هم يتحركون فى الحياة ويأكلون ويتمتعون كما تأكل الأصنام ولهم القدرة والإرادة على فعل الأشياء وتركها. أما أصنامهم فجامدة لاتتحرك ولاتملك المقدرة أو الإرادة على صنع نفسها أو إقامتها فى مكان ماتتعبد من خلاله بل إن الجهال هم الذين يصنعونها بأيديهم ثم يقيموها فى ساحاتهم لتعبد من دون الله تعالى فأين هم من أصنامهم إنهم يمارسون الحياة وأصنامهم جامدة لاتتحرك... والله تعالي أعطاهم الأحاسيس والمشاعر والقدرة المحدودة والإرادة المضبوطة .. أما آلهتهم فلا ..

قال الله تعالى: «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له...» صدق في جانب آيات الله تعالى وعجز خادح بآلهة الكفر - يحتد لهم أن تكون معبوداتهم ترقى إلي مراتب الألوهية وهى أعجز ماتكون دفاعاً عن ذاتها من أضعف ماخلق الله تعالى قال الله تعالي: وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه وكأن سائلاً سأل: ولماذا وكيف فكان الجواب من الله تعالى ضعف الطالب والمطلوب ..!!

فأين التمييز والعقل من قبل هؤلاء ؟

ولما لم يكن لديهم منه شئ أو كان ذلك منهم صادراً عن عناد ومكابدة كان جزاؤهم ماتصوره الآية: «أولوا كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» والشيطان يزين لهم الكفر والعصيان وفى طاعتهم له كفر وجحود لله تعالى جزاؤه عذاب النار حيث يلقون في نار الجحيم» التى وقودها الناس والحجارة[١]- كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب»[٢] هذا حال الكافرين صورتهم الآيات فأبدعت في تصويرهم .

وفى الآيات السابقة تصوير لمن باع نفسه للشيطان فكان جزاؤه عذاب السعير وفى الآية التالية تصوير لمن أسلم نفسه للرحمن يقول الله تعالي: «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن» فهى صورة تقابل أخرى أى أن من ينقاد لأوامر الله ويدخل في دين الإسلام ويعبد الله تعالى حق عبادته ويفوض أمره إليه تعالى فإنه يكون من الراشدين المهتدين السالكين طريق الحق المبين قد تعلق أتم تعلق بأوثق مايتعلق به الإنسان من الأسباب «وإلي الله عاقبة الأمور» أى أن كل أمر وشأن مما يخص العبد منوط بقدرة الله تعالى وإرادته وبهما وإليهما مرجع أمره و«إلى الله» لحصر تعلق كل الأمور بقدرة الله تعالى وإرادته رداً على الكفرة فى زعمهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور»[٣].

---

(١) سورة التحريم الآية ٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٥٦ .

(٣) روح المعانى حـ١٩ ص٩٥ .

ولما بينت الآيات حال من يسلمون وجوههم إلى الله تعالي انتقلت إلى تبيان حال الكافرين ودرجاتهم وجزاؤهم عند الله تعالى قال تعالي: «ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا» كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن لكفر الكافرين وعنادهم إشفاقاً منه عليهم لما يعلمه صلى الله عليه وسلم من العذاب الذى أعده الله تعالى للكافرين فبين الله تعالى له صلى الله عليه وسلم أنه ليس له أن يغتم بكفر من كفر لأن شأنه يسير على الله تعالى وهو مجازيه على شر أعماله، لأنهم بعد نفاد عمرهم يكون مرجعهم إلى الله تعالي حيث يجدون أعمالهم مسطرة عليهم يقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولايظلم ربك أحداً»[1].

وتأكيداً لعلم الله تعالى بهم ومجازاته لهم قال الله تعالى: «إن الله عليم بذات الصدور» تعليل للتنبئة المعبر بها عن المجازاة لأنه عليم بالضمائر فكيف بسواها ..

والصدر فى الغالب نبع الحب والكراهية، وبه تنضج الأفكار والعواطف وهو محل السرائر، وصح عن الرسول صلي الله عليه وسلم أنه قال: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب.. التقوى هاهنا وأشار إلى صدره ...

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩ .

«نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ» فيسر لهم ماينالوه من متع الحياة الدنيا» - قليلاً - مدة بقائهم فى الدنيا وهى قليلة وأيامها معدودة وإن طالت (ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) نسوقهم إلي جهنم زمراً قيل المعنى: نضم إلي الإحراق الضغط والتضييق»[1].

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله... » يخبر الله تعالى عن المشركين وكفرهم وعنادهم حين يسألون عن خالق السموات والأرض فيكون جوابهم أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض فيكون جوابهم أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض.. وهم يعلمون ذلك ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى الأصنام يعبدونها من دون الله ...

(قل الحمد لله) والحمد هو الثناء والشكر للخالق جل وعلا على خلق السموات والأرض وماحوتا من نعم لاتعد ولاتحصى وعلي هداية الله تعالى للمؤمنين وإقرارهم بالعبودية لله تعالى ..

(بل أكثرهم لايعلمون) أى لاينظرون ولايتدبرون - بل يكفرون بنعم الله تعالى وآلائه ...

ثم يكون لفت الأنظار إلي أهمية إقرار العبودية لله تعالي فتقول الآيات: «لله مافي السموات، ومافي الأرض» أى خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لسواه دخل في شئ من أمور الدنيا، وإذا تفرد سبحانه وتعالي بالخلق والإيجاد والإشقاء والإسعاد، فقد وجب تفرده سبحانه وتعالى بالعبادة وليس الحمد والثناء بذى أثر على الله تعالى...

---

(١) روح المعانى حـ١٩ ص٩٦ .

لذا كان قوله تعالي: «إن الله هو الغنى» أى المستغنى عن خلقه وعن عبادتهم أما أمرهم بالعبادة فذلك لخيرهم وسعادتهم في الدنيا (الحميد) - المستوجب للحمد وإن لم يحمده جل وعلا أحد، أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال[١] وهذه صورة أخرى مما حفلت به السورة من صور قوية موحية يقول الله تعالى:

«ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله... قال القفال: لما ذكر أنه سخر لهم مافى السموات ومافى الأرض وأنه أسبغ عليهم النعم، نبه علي أن الأشجار لو كانت أقلاماً والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب»[٢].

قال ابن عباس : إن سبب نزول هذه الآية : إن اليهود قالت يامحمد: كيف عنينا بهذا القول - وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً - ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه وعندك أنها تبيان كل شئ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : التوراة قليل من كثير «نزلت هذه الآية :

وقال قوم: «إن قريشاً قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر فنزلت، وقال السدى: قالت قريش ماأكثر كلام محمد فنزلت «إن ا لله عزيز» لايعجزه جل شأن شئ «حكيم» لايخرج عن علمه تعالى وحكمته سبحانه شئ .

---

(١) السابق والصفحة .

(٢) القرطبى ص٥٣٣٣، ٥٣٣٤ .

والجملة تعليل لعدم نفاذ كلماته تبارك وتعالى .. وإذا كان من آيات الله تعالي وقدرته أن كلامه سبحانه لاينفد، بيد أن قدرته أوجدت كل شئ بالحكمة مهما تعددت الأرواح والنسائم، ويتم كل ذلك دون مشقة أو عناء قال الله تعالي: «ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة» فأمره جل وعلا بين الكاف والنون - إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»[١].

إنه سميع لأقوالهم - بصير بأفعالهم .

وقيل سميع - يسمع كل مسموع «بصير» يبصر كل مبصر فى حالة واحدة لايشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذا الخلق والبعث وحاصله كما أنه تعالى ببصر واحد يدرك سبحانه المبصرات وبسمع واحد يسمع جل وعلا المسموعات ولايشغله بعض ذلك عن بعض»[٢].

(ألم تر) يعنى ألم تسمع وتعلم من خلال مامنح الله تعالى من نعم البصر والسمع والعقل والتمييز .

قيل هو خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم، وقيل عام لكل من يصلح للخطاب وهو الأوفق، لأن خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ينسحب علي كل البشر ..

وأقول فيما أرى - إنه إنطلاقاً من قوله تعالى: «ماأتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا»[٣] فإن الخطاب يبتدأ به

---

(١) سورة يس الآية ٨٢ .

(٢) روح المعانى حـ٢٠ ص٩٧ .

(٣) سورة الحشر الآية ٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم ينسحب على كل من يصلح للخطاب من عامة الناس قال الله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً»[١].

«أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل» من دلائل قدرة الله تعالى وشواهد عظمته ماتحدثنا عنه الآية الكريمة وهى صورة رائعة جميلة تخيل الليل والنهار وقد أزاح كلاهما الآخر عن الحياة الدنيا فى تصوير بديع وكأنهما شيئان يدخل كلاهما في الآخر فيتغير الزمن، فمن ظلمة داجية إلى إضاءة وشمس ساطعة ولما كان ذلك شئ مما اختص الله تعالى به أضافه إلى ذاته العلية والله سبحانه وتعالى يخبر أنه يولج الليل في النهار: يعنى يأخذ منه في النهار فيطول النهار ويقصر الليل.

وهذا يكون زمن الصيف ثم يكون زمن الصيف حيث يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون زمن الشتاء[٢].

وقيل أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه سبحانه إليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصاناً.

وعدل عن يولج أحد الملوين فى الآخر مع أنه أخصر للدلالة على استقلال كل منهما في الدلالة على كمال القدرة .

وقدم الليل على النهار لمناسبته لعالم الإمكان المظلم من حيث إمكانه الذاتى ...

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨ .

(٢) ابن كثير جـ٣ ص٤٥٢ .

قال تعالى: «هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب»[١] وقال تعالى: «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلاً»[٢] جعل للشمس ضوء يخصها وللقمر نور يخصه وفاوت بين سير هذه وهذا فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره علي ضوء واحد .

ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار[٣].

وفي بعض الآثار كان العالم فى ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره، وهذا الإبلاج إنما هو فى هذا العالم ليس عند ربك صباح ولامساء[٤].

(وسخر الشمس والقمر) مع تقديم الليل الذى فيه سلطان القمر علي النهار الذى فيه سلطان الشمس لأنها كالمبدأ للقمر ولأن تسخيرها لغاية عظمها أعظم من تسخير القمر وأيضاً أثار ذلك التسخير أعظم من أثار تسخيره[٥].

---

(١) سورة يونس الآية ٥ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١٢.

(٣) ابن كثير حـ٤ ص٥٧٢ .

(٤) روح المعانى حـ٤ ص٥٧٢ .

(٥) السابق والصفحة .

وتسخير الشمس والقمر : قيل إلى غاية محدودة وقيل إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح .

والشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى أفحم بهما إبراهيم عليه السلام طاغية من طغاة عصره [١] حين حاجه عليه السلام وتصور الآيات ذلك يقول الله تعالى: «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب...!! فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين» [٢].

ويستشهد على تسخير الشمس والقمر إلى مدة محدودة بحديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه الذى فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ياأبا ذر: أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فتوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت [٣].

(كل) أى كل واحد من الشمس والقمر (يجرى) يسير سيراً سريعاً مستمراً (إلى أجل) منتهى للجرى (مسمى) سماه الله تعالى وقدره لذلك، وهو كما قال الحسن يوم القيامة، فإنه لاينقطع جرى النيرين وتبطل حركتهما إلا فى ذلك اليوم [٤] وقال قتادة: إلى وقته فى طلوعه وأفوله لايعدوه ولايقصر عنه [٥].

---

(١) نمروذ بن كنعان بن سام بن نوح .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٣) ابن كثير جـ٣ ص٤٥٢ .

(٤) روح المعانى جـ٢٠ ص١٠٢ .

(٥) القرطبى جـ٧ ص٥٣٣٦ .

(وأن الله بما تعملون خبير) أى أن من قدر على هذه الأشياء فلابد من أن يكون عالماً بهاوالعالم بها عالم بأعمالكم»[١].

و(ذلك) إشارة إلى ماتضمنته الآيات وأشارت إليه من سعة العلم وكمال القدرة واختصاص البارئ سبحانه وتعالى شأنه بها (بأن الله هو الحق) أى بسبب أنه سبحانه وحده الثابت المتحقق في ذاته أى الواجب الوجود .

(وأن مايدعون من دونه) من آلهة يعبدونها من دون الله - هى(الباطل) (المعدوم) الذى لاوجود له ولايستحق أن يعبد من دون الله تعالى وقيل ماأشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان .

(وأن الله هو العلى الكبير) العلي في مكانته الكبير فى سلطانه»[٢] .

ثم انتقلت الآيات إلي رسم صورة أخرى وكم هى جميلة ورائعة تلك السفن وهى تنساب على سطح الماء قد بسطت أشرعتها البيضاء وهى تعلو وتهبط بفعل الماء وحركة الموج فى ثبات وتؤدة وهى تتحرك على الماء بقدرة الله تعالى وتيسيره ولو شاء لأغرقها بتسليط الموج عليها .

(أمر تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته) من نعمه وآلائه من تهيئة الماء وتسخير الرياح بما يناسب إبحار السفن وتنقلها من مكان إلي آخر ..

---

(١) القرطبى حـ٧ ص٥٣٣٦ .

(٢) القرطبى ص٥٣٣٧ .

والقـــرآن الكريم في آياته يلفت نظر المؤمنين إلي آيات الله تعالي والاته فى الكون ليدفعه ذلك إلي التدبر والتفكر والإقرار لله تعالى بالعبودية وتوحيده بالألوهية ...

(إن فى ذلك لآيات لكل صـبـار شكور) أى فى كل مـاسـبق الحديث عنه من دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته .

(والآيات) جمع آية وهى العلامة، وعلامة المؤمن هى الصبر في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون، ومن علاماته أيضاً (الشكر) وهو الثناء والعرفان والطاعة للمانح جل وعلا ..

والصبر نصف الإيمان والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله[1].

ثم تنتقل الآيات إلى إبراز صورة أخرى للفلك حين يعلو الموج ويكاد يغطى السفن ويغرقها بمن فيها في قاع البحر ويشفون على الغرق لايكون أمام ركابها إلا التوحيد والخضوع والتضرع إلى الله تعالى طلباً للنجاة وكم هى جميلة تلك الصورة... ومؤثرة أيضاً ومخيفة ومفزعة .

سفينة على صفحة الماء تتهلل أسارير ركابها فرحاً وابتهاجاً وسعادة برحلة على سطح الماء ولم يكن ذلك الفرح والهناء إلا نعمة من الله تعالى وتيسيراً منه جلت قدرته، ولكن دوام الحال من المحال فسرعان مايختبرهم الله تعالي بإغشاء الموج لهـــم فتنقلـــب

---

(١) السابق ص٣٣٧ .

صورة الفرح والسعادة إلى فزع واضطراب ولايكون أمام هؤلاء إلا رفع الأكف تضرعاً وخشية وإخلاصاً لله تعالى طلباً للنجاة فإذا تحقق طلبهم ووصلوا إلي البر كان منهم المؤمنون الصادقون الذين هم على ذكر دائم لله تعالى، ومنهم الكافرون بنعم الله تعالى ..

إن الله لطيف بعباده يسلكهم البحر ويهيئ لهم أسباب الملاحة فيه بقدرته - بيسر ويتسخيره الماء والهواء والرياح ليكو ذلك آية من آيات الله تعالى، ولايظل الحال علي ذلك ، فقد يخرج الماء عن الصورة التى رسمتها الآية السابقة حيث يعلو الموج وينتاب الماء الاضطراب بأمر الله تعالى فتفطى السالكين للبحر أمواج تصير كالظلل لعلوها، وحين يتبدل الحال بهؤلاء وهم فى مسيرهم على جناح الرحمة والقدرة الأمواج تعلو بهم وتهبط وتغمرهم بزيدها ويتعرضون للغرق بين لحظة وأخرى حينئذ يتجهون إلي الله تعالى بإخلاص وتوحيد لله تعالى، فإذا وصلوا إلى بر الأمان انقسموا فريقين أفضلها من دامت على الإلتزام بعهدها وهى ماعبر عنها بقوله تعالى: «فمنهم مقتصد - أى سالك القصد - أى الطريق المستقيم لايعدل عنه إلى غيره .

روى السدى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يكفوا عن قتل أهلها إلا أربعة نفر منهم قال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبى جهل، وعبد الله بن خطل وقيس بن ضبابة، وعبد الله بن أبى سرح ..

فأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم ريح عاصفة فقال أهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لاتغنى عنك شيئاً ههنا فقال عكرمة:

لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ماينجينى في البر غيره... اللهم إن على عهداً إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً صلى الله عليه وسلم حتى أضع يدى على يده فلأجدنه عفواً كريماً فجاء فأسلم وتبين الآيات أن الناس بعد النجاة ينقسمون قسمين: أولهم السابق ذكره وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، والآخرون عبرت عنهم الآية فى قوله تعالى «ومايجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور».

والجحود الإنكار مع العلم، أى أنهم عالمون بقدرتنا وإرادتنا في تسيير دفة الكون ومليكتنا له وقدرتنا على تغيير أحواله من منطلق القدرة ولكنهم ينكرون ذلك، ولذلك كان وصمهم من الله تعالى بتلك الصفات وأعظمها درجة الكفر وسوء الطوية فقال تعالى في حقهم :

«إلا كل ختار كفور» والختار من الختر وهو أشد الغدر، وفي مفردات الراغب: الختر: غدر يختر فيه الإنسان أن يضعف ويكسر لاجتهاده فيه .

أى مايجحد بآياتنا ويكفر بها إلا كل غدار أشد الغدر، لأن كفره نقض للعهد الفطرى، وقيل لأنه نقض لماعاهد الله تعالي عليه فى البحر من الإخلاص له عز وجل .

«كفور» مبالغ في كفران نعم الله تعالى، والكفر هو الستر والتغطية والإهمال لما ظهر للعيان ...

وختار مقابل صبار لأن من غدر لم يصبر على العهد «كفور» مقابل الشكور وهو المبالغ فى كفران نعم الله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزى والد عن ولده) النداء هنا لجميع الأناسى «اتقوا ربكم» أمر بالتقوى لما فيها من خيرى الدنيا والآخرة

(ربكم) - ذكر لفظ الرب لتذكير الناس بما لله تعالى من فضل عليهم، فقد خلقهم من العدم ، وأنعم عليهم بما استقامت به حياتهم وأعظمها الرحمة التى وسعتهم وهذا جانب التبشير فى الآية ....

أما جانب الإنذار والتخويف فيتمثل فى قوله تعالى «واخشوا يوماً لايجزى والد عن ولده» أى خافوا يوماً طويلاً زمنه شديداً حره عظيماً هوله، لايغنى فيه مولى عن مولى شيئاً ولاهم ينصرون» ومن شأن الوالد أن يحمل عن ولده كل المشاق والمتاعب في الدنيا وهو يدأب وينصب من أجل راحة أولاده ... لأنهم أعز مالديه .. وصدق قول القائل :

كأنما أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض

لو هبت الريح على أحدهم لامتنعت عينى عن الغمض

هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فلا ... إنه يوم «تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها» [1] «ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» [2] «ولايغنى مولى عن مولى شيئاً» [3] .

«إن وعد الله» بالثواب لمن أطاع الله تعالى والعقاب لمن عصى (حق) أى واقع لامحالة إنه تعالى لايخلف الميعاد .

(فلا تغرنكم الحياة الدنيا) لاتركنوا إليها وتنلهوا وتتسلوا بلذائذها ، الفانية عن طاعة الله تعالى (ولايغرنكم بالله الغرور) هو

---

(١) سورة الحجة الآية ٢ .

(٢) سورة عبس الآية (٣٧) .

(٣) سورة الدخان الآية ٤١ .

الشيطان بأن يزين لكم المعاصى ويدفعكم بذلك التزيين والتهوين على ارتكاب المعاصى وترك التقوى وإهمال التوبة، ولما كان شأن الشيطان غواية الإنسان وإلهائه وغوايته للناس كان إسم الغرور علماً عليه لأن ذلك شأنه وديدنه ..

ثم انتقلت الآيات إلى بيان مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعدإعلامه تعالى بها فعلم وقت الساعة لايعلمه نبى مرسل ولاملك مقرب ...

يقول الله تعالى : «إن الله عنده علم الساعة» والساعة هى القيامة قال الله تعالى: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها [١] وقال تعالى: «لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة» [٢].

وكذلك إنزال الغيث لايعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه .

وكذلك لايعلم مافى الأرحام، مما يريد أن يخلقه تعالى ولكن إذا أمر يكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون ومن شاء الله من خلقه .

وكذلك لاتدرى نفس ماذا تكسب غداً فى دنياها وأخراها وماتدرى نفس بأى أرض تموت» في بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان لاعلم لأحد بذلك .

---

(١) سورة النازعات الآية ٤٦.

(٢) سورة الآية

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: خمس لايعلمهن إلا الله عز وجل الآية .

قال مقاتل: إن هذه الآية نزلت فى رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة - أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماذا تلد؟ وبلادنا جدبة فأخبرنا متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ؟ وقد علمت ماعملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غداً وأخبرنى متى تقوم الساعة فأنزل الله تعالى هذه الآية ...

«وينزل الغيث» أى المطر ولايقدر علي ذلك سواه جل وعلا قال الله تعالى: «وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار»[1] .

أى في إبانة من غير تقديم ولاتأخير فى بلد لايتجاوزه وبمقدار تقتضيه الحكمة والمنفعة ... أو المضرة والإساءة لحكمة يعلمها (ويعلم مافي الأرحام) من ناحية الذكورة والأنوثة والحمل وعدمه وماأسبابه ووقت خروجه إلى الحياة الدنيا وسعادته فيها وشقاوته ومدة بقائه فى الدنيا والأماكن التى يتحرك فيها .. (وماتدرى نفس) نفس أى إنسان برة كانت أم فاجرة والنكرة نعم جميع الأناسى، وتنفى الآية عنها دراية مايحدث لها في مستقبل الزمان الذى تعيشه مهما قصر زمنه، ناهيك عن معرفتها بالغد الذى يعتبر زمناً طويلاً لاتدرى مايحدث لها فيه من باب أولى إذا كانت لاتدرى ماسيحدث لها فى لحظة حياتها الراهنة .

(بأى أرض تموت) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله تعالى قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم يتنه حتى

---

(١) سورة النور الآية ٤٣ .

يقدمها ثم قرأ عليه الصلاة والسلام «وماتدرى نفس بأى أرض تموت» وأخرج ابن أبى شعثه في المصنف عن خيثمة: أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ويديم النظر إليه فقال الرجل من هذا ؟ قال ملك الموت فقال الرجل : «كأنه يريدنى، ثم إن الرجل طلب من سليمان أن يأمر الريح بأن تحمله وتلقيه بالهند ففعل ولما سأل سليمان ملك الموت عن سبب دوام نظره إلى الرجل .

وكان جواب ملك الموت : كان دوام نظرى إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك»[1].

(إن الله عليم) عظيم الإحاطة فى علمه فلا يغيب عن علمه شئ قال الله تعالى: «وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة في ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا في كتاب مبين ... وإنه يعلم السر وأخفى .. «خبير» يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها فالجمع بين الوصفين للإشارة إلى التسوية بين علم الظاهر والباطن عنده عز وجل والجملة علي ماقيل فى موضع التعليل لعلمه تعالى بما ذكر ..

وقيل جواب سؤال نشأ من نفى «دراية الأنفس» ماذا تكسب غداً وبأى أرض تموت، كأنه قيل: فمن يعلم ذلك فقيل: إن الله عليم خبير وهو جواب بأن الله يعلم ذلك وزيادة ولايخفى أنه إذا كانت هذه الجملة من تتمة الجملتين اللتين قبلها كانت دلالة الكلام علي انحصار العلم بالأمرين الذين نفى العلم بهما عن كل نفس ظاهرة جداً.

فتامل ذاك والله يتولى هداك

---

(١) روح المعانى حـ٢٠ ص١١٣ .

الدراسة الفنية

- ابتدأ الله تعالى السورة بسر من أسراره هى قوله تعالى: (آلم) التى اختلف المفسرون فى توضيح القصد من بدء عدد من السور بتلك الحروف المقطعة وذلك إعجاز أى إعجاز، وكل ماأورده المفسرون من آراء تشهد كلها بجلال القرآن وسمو فنه وأنه من عند الله تعالى وأنه لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد .

- ورد فى النص ألفاظ قوية محكمة تدل على المعانى فى قوة - فمنهاه قوله تعالى: «تلك آيات الكتاب الحكيم» أى المتصف بالحكمة في كل مايأتى ومايذر والذى يقل لفظه ويجل معناه .
- لفظ هدى ورحمة للمحسنين.. ثلاثة ألفاظ تدل المسلم على الخير فى الدنيا والآخرة - فبين دفتى الكتاب الكريم الهداية والرشاد التى تكون نتيجتها الرحمة والبعد عن الشقاء فى الدنيا والإنحراف والانزلاق إلي مهاوى الشر، ولاشك أن من يهتدى بهدى الله تعالى تناله الرحمة وحينئذ يكون قد أحسن العمل فى دنياه والله لايضيع أجر من أحسن عملاً ..

- فى الآيات ذكر الدلائل الهداية والرشاد والرحمة والإحسان وأولاها إقامة الصلاة وأدائها على الوجه الأكمل - لأن الصلاة صلة بين العبد وربه - وليس بين الرجل وبين الكفر سوى ترك الصلاة.. والصلوات نهر غمر يزيل أودان المسلم فى اليوم

والليلة خمس مرات واستعمال لفظ إقامة لبيان أن المسلم الحق يؤديها على خير وجه، ويراها تقرباً إلى الله تعالي ومودة له وليس الأمر مجرد أداء أركان دون نزوع ووجدان ولا يقتصر الأمر على إقامة الصلاة بل إنهم :

«يؤتون الزكاة» أى يقدمونها طواعية منهم قبل أن يسألهم سائل ولما كان أمر الدنيا هيناً فى التعرف عله كانت الآخرة موطن شك لبعض ضعاف الإيمان إلا أن المهتدين كانت الآخرة بالنسبة لهم يقيناً، فلا يخامر الشك قلوبهم وعقولهم تجاهها .

وعبر بالمضارع للدلالة علي دوام اليقين واستمراره فى عقولهم ومن كانت هذه صفاته لايكون إلا فائزاً يرضى الله تعالى .

فإذا انتقلت الآيات إلى تصوير شأن فريق حال نوع من الكافرين استعملت الكلمات الموحية التالية: يشترى - لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً .

وجزاؤه العذاب المهين .

وفى الآية صور بيانية حيث بينت أن هذا الصنف من الناس عمد إلى مبادلة آيات الله وماتحوى من خير وهدى للناس بما يجلب من أشياء تكون أداة للهو والسخرية والاستهزاء . ثم الإضلال والتيه والابتعاد عن الطريق القويم والدين الحنيف وإذا فعلوا ذلك فليس لهم من الله إلا الإهانة والتحقير بالعذاب الذين يلقونه من الله تعالى.

فإذا صورت الآيات حال هؤلاء المستكبرين عن الانقياد للحق كانت الكلمات الآتية هى الوسيلة فى ذلك فقد كان لفظ ولى ومستكبراً - كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً .

وهى تصور الطغاة لاتؤثر فيهم آيات الله تعالى حين تتلى عليهم فيعرضون عن سماعها في سرعة وقوة وإعراض وعدم تدبر لايات الله تعالى وحالهم فى ذلك حال الأصم الذى لم يصل الصوت إلى أعماق قلبه ويكون جزاؤه ومن على شاكلته مأورد فى الآية «فبشره بعذاب أليم».

وهنا صورة بيانية فالبشارة لاتكون إلا بالخير ولكن الآية فيها تهكم بمن يعرض عن سبيل الله ويضل الناس ويكون سبباً فى غوايتهم «حيث نزل التضاد بين التبشير والإنذار منزلة التناسب بينهما تحقيقاً فى التبشير وتنزيلاً فى الإنذار، ثم استعير التبشير للإنذار واشتق منه - بشر - بمعنى أنذر علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية والقرينة المانعة هى عذاب وهو مجرور بالياء ومتعلق بالفعل الذى وقعت فيه الاستعارة لأن التبشير بمعناه الحقيقى. وهو الإخبار بما يسر لايتعدى إلى العذاب فدل ذلك على أن المراد بالفعل «بشر» معنى يناسب العذاب، وهو الإنذار أى الإخبار بما يسوء»[1].

فإذا انتقلت الآيات لتصوير حال المؤمنين الصالحين بأعمالهم وأهتدائهم بينت أنهم ينعمون فى دار الخلود واستعملت ألفاظاً تدل على ذلك مثل «جنات النعيم» ووصفهم «بدوام البقاء والخلود» فيها من خلال-لفظ «خالدين فيها» وذلك وعد من الله تعالى حقاً وصدقاً لامراء فيه ولما كان الأمر والوعد كذلك حقاً وقصداً جاء لفظ العزيز

---

(١) البلاغة الوافية وشيخون ص١٣٨ .

الحكيم ليبين أن هذا الخير حق لأنه من عند من لايغلب والذى تأتى كل أفعاله جل وعلا من منطلق الحكمة وتفسير وإيضاح لعزته وحكمته جلت قدرته كانت الآية التالية والتى تتحدث عن خلق السموات ورفعها دون أن تكون هناك أعمدة ترفعها ولما كانت السماء سقف الدنيا كان لزماً أن تكون هناك أعمدة ترفعها وتبقى عليها منصوبة ولكن قدرته تعالى رفعت السموات بغير عمد ترونها وتلك آية من آيات الله تعالى قال الله تعالى فى تحد آخر وإظهار للقوة والعظمة« أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها... »[1].

ودليل قدرة الله تعالى على الكون إقامة الجبال لحفظ توازن الأرض كيلا تميل واستعمال - كلمة رواسى لتدل بقوة على القصد منها وهو تثبيت الأرض قال تعالى: «ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً »[2]. ثم هذه الرواسى يعبر عنها جل وعلا بقوله تعالى.. وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم فأى قدرة هذه، ومن شأن مايلقى أن يكون قليل الشأن وهى كذلك بالنسبة لخالقها... أما بالنسبة لنا فأى هول يلقانا منها وأية مشاق فى الصعود إلى قمة بعضها.

أرأيت بعض دلائل قدرة المولى جل وعلا.. ألقى فى الأرض رواسى ياسبحان الله هذه الجبال تلقى ويعجز القلم عن رسم تلك الصورة البيانية هذه السلاسل الجبلية فى شتى أرجاء الدنيا تلقى فى الأرض كحجر فى بئر فأين العقول التى تحيط بذلك .

---

(١) سورة النازعات الآية ٢٨ .

(٢) النبأ الآية ٧ .

ولم يترك الله تعالى الأرض خراباً يباباً وإنما نشر فيها مخلوقاته التى لاتعد ولاتحصى واستعمل جل وعلا لفظ «بث فيها» بمعنى نشر وفرق وأظهر فيها من شتى ألوان مخلوقاته لإعمارها وأوجد سبحانه سبباً لحياتهم متمثلاً فى المطر الذى لاينبت بالماء الناتج منه كل الأحياء من كائنات ونباتات وشتى المخلوقات ...

وإذا كان الله تعالى قد خلق ويخلق كل هذه الظواهر فى الحياة الدنيا فأين مايخلقه سواه من المعبودات التى يعبدونها فى زعمهم ولما لم يكن لهم من مخلوقات لتدل علي قدرتهم جاء دمغ الآية لهم بأنهم خائنون وضالون قد حادوا عن الصراط المستقيم .

- قال الله تعالى : وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1] .

وفى الآية التى تلى ماسبق الحديث عنه من سورة لقمان تعبر عن هذا المعنى فى الآية التى سردتها .

فالنعم من الله تعالى عبرت عنها الآية بلفظ آتينا لتدل على أن المانح والمعطى هو الله تعالى .

أما المعطى - فهو الحكمة - وهى العلم والتفقه ونتاجها شكر الله وهذا أفضل مايقوم به الإنسان لقاء نعم الله التى لاتعد ولاتحصى ثم إن الشكر يضاعف ويزيد البركة والخيرات للشاكر «ومن شكر فإنما يشكر لنفسه» «لئن شكرتم لأزيدنكم»[2] .

أما من لم يشكر الله وكان مسلكه الجحود والنكران لنعم الله تعالى ولفظ «كفر» يوحى بما فى نفوس هؤلاء المنكرين لنعم الله ولكن الله تعالى لاتنفعه ضاعة ولاتضره معصية .

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٩ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٧ .

فكان تعبير الآيات - إن الله غنى - نعمه لاتعد ولاتحصى ولفظ غنى يدل على عدم حاجته إلي شكر الجاحدين، فهو فى غير حاجة إلى شكر الشاكرين ولايضره إنكار المنكرين .

- لما كان لقمان حكيماً كان أول مظاهر حكمته شكر الله تعالى علي النعم. وكان من مظاهر حكمته توجيهه النصح لابنه بأمور لاغنى له عنها في الدنيا ولافى الآخرة .
- أولاها : توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به وكان السبب فى ذلك أن الشرك ظلم لنفس الإنسان وإيهام التطاول على الرحمن وتعظيم ماليس له شأن مما يعبدون من الأصنام والأوثان .
- ولما كان الخلاق جل وعلا هو الموجد للإنسان من العدم لذا وجب له الشكر والإجلال والإعظام والتوحيد ..

أما بالنسبة للوالدين فهما السبب في الوجود الذى هو دليل قدرة الله تعالى وهما اللذان يقومان بالرعاية والاهتمام بعد ظهوره في الحياة ولذا استحقا الوصاية من الله بهماوخص الأمم لما ينالها من مشقة ومعاناة وآلام وكان اختيار كلمة وهن على وهن لتكون حضاً للمؤمن وسبباً لإكرام الأمم وفى الآية ترتيب للشكر من العبد فهو لله تعالى ثم للوالدين ...

- فى الآية التالية إرشاد للمؤمن فى علاقته بأبويه وبيان للحدود التي تسير فيها تلك العلاقة وإذا كان لهما حق الإحسان من قبل الإبن فليس لهما حق إفساد علاقته بربه إذا كانا مشركين والواجب عليه ألا يطيعهما فى ذلك - إلا أنه لاينتقص بذلك من حقوقهما فى الدنيا وعليه أن يتمسك بحبل الله وترك أمره ويترك أمر ذاته كابن وأمرهما إلي الله تعالى. بالنسبة للمعاملة بينه وبينها .

فى الآية ألفاظ موحية - فكلمة جاهداك - توحى ببذل الجهد والمشقة من قبل الوالدين - أحياناً من أجل أن يشرك الإبن بالله جل وعلا وكلمة - تشرك - بما لها من وقع قد توحى بما يؤدى إليه ذلك المسلك الشائن من إضفاء صفات الألوهية على من لايستحقها وإيهام الإنتقاص بالنسبة للمولي جل وعلا ..

ثم كلمة- أناب - يعنى المطيع المخلص العبادة لله أى أنه يكون صورة منه ولايدور بخلده ماقد يوسوس به الآباء .

وإذا كان الإنسان لم يخلق عبثاً ولن يترك سدى كان تذكير الله تعالى للإنسان بأنه راجع إلى ربه ليحاسبه على ماقدم فى الدنيا .

«وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» (١)

- والآية التالية تأكيد لعلم الله تعالى بما يأتيه الإنسان ومايذره فى دنياه مهما قل شأنه وصغر حجمه وكانت الألفاظ الموحية مؤكدة لهذا المعنى مثل قوله تعالى: يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله. ثم لفظتى - «لطيف وخبير» لهما من الإيحاء والتأكيد على علم الله تعالى وخبرته بكل مافي مذكوته ..
- في قوله - يابنى أقم الصلاة. لفظ - بنى وهى تصغير ابن واستعمله هنا لبيان العلاقة التى تربطه به وأنها السبب فيما يقدم من وصايا باتجاهه من وصايا تجاهم لمنزلته فى نفسه، ثم لفظ - أقم لبيان أنه يجب عليه أن يؤدى الصلاة على الوجه الأكمل ..

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٤ .

وكلمة المعروف وهى كل أمر حسن وجميل، والمنكر: كل إثم قبيح والصبر وهو التجمل والجلد كل هذه الأمور يستحثه عليها لأنها من الأعمال العظيمة التى لاغنى للإنسان عنها فى الحياة الدنيا .

- فإذا انتقلت الآية إلى توجيهه إلى مايتبغى أن تكون عليه علاقة الإنسان بأخيه الإنسان كان تعبير القرآن بقوله: لاتصعر خدك للناس أى لاتمل وجهك عنهم كبراً وتعاظماً - وهى صورة بيانية قال ابن جرير :

وأصل الصعر داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسهاه حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر»[1].

قال أبو طالب في شعره :

وكنا قديماً لانقر ظلامة إذا ماثنوا صعر الرؤوس نقيمها

- ومن حسن التعامل بين الناس وبعضهم البعض أن يتوسط الإنسان فى مشيه بأن يكون وسطاً بين خيب اليهود ودبيب النصارى . وخفض الصوت ثم كان لفظ الحمير فى تشبيه ذى الصوت المرتفع بأن صوته صوت حمار تنفيراً للمتكلمين من أن يرفعوا أصواتهم حتى لايكثر اللغو والصخب والضجيج وتضيع الحقائق فى ذلك الزحام .

- فى قوله «ألم تروا أن الله سخر لكم .... الآية .

وأسبغ عليكم نعمه ..... الآية

تدل على عظيم نعم الله تعالى على الإنسان فكل شئ ميسر فى الدنيا للإنسان - وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون» .

---

(١) ابن كثير جـ٣ ص٤٤٦ .

ونعم الله تعالى قد غطت الكون كله بما فيه وهى صورة بيانية كأنها ثوب فضفاض خلعه الله تعالى على سائر خلقه. لينعم بها فى الدنيا ويشكر الله تعالى عليها .

- إن الإنسان بالرغم من أنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة إلا أن الناس فريقان فريق يجحد بنعم الله ويكفرون به تعالى بغير دليل وحين ينصحون باتباع آيات الله يعرضون عن دعوة الله وعبادته ويستجيبون لغواية الشيطان فكان جزاؤهم العذاب الأليم .

واستعمال كلمة «السعير» للدلالة على ماينالهم من شدة العذاب فهو ليس عذاباً فقط وإنما تسعر بهم نار جهنم ويشتد أوارها .

- أن من يسلم وجهه إلى الله - وهو محسن ينال الدرجات العلى وهنا نجد فى الآيتو ألفاظاً موحية - يسلم «وهى تفويض الأمر لله تعالى - ثم قوله تعالى - وهو محسن - فالأمر بالنسبة له قول وعمل ومن يفعل ذلك فقد تمسك وتعلق واعتصم بالعهد الأوثق الذى لانقض له وأمره إلى ربه يجزيه أحسن الجزاء .

- أن كفر الكافرين لاوزن له ولايلتفت إليه فأين يذهبون : وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ولن يستطيعوا الإنكار ولاالكتمان وكان التعبير «إن الله عليم بذات الصدور على سبيل التأكيد لهذا الأمر فلا مفر إذن من العقاب ...

- فى الآية لفت لأنظارهم إلى شأن الدنيا وكيف أن متاعها قليل فكان التعبير بقوله تعالى: «نمتعهم قليلاً... أى حياتهم ثم يكون سوقهم إلي العذاب الغليظ - الشديد الثقيل ولعلنا

نلمح وقع كلمـــة - نضطرهم، وكلمـــة غليظ للدلالة على ماسيلاقونه من عذاب أليم.

- فى قوله تعالى - ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض... الآية اعـتـراف منهم بأن الله خالقهم ورغم ذلك لايقـرون له بالعبودية فاستحقوا العقوبة أما من هداهم الله فحق عليهم الحمد والشكر على ماوفقهم الله تعالى.

- فى الآية التـاليـة: اعـتـراف بملكيـة الله تعـالى للكون أرض وسمائه لله مافى السموات ومافى الأرض - دون سواه وتأكيد كون الله تعالى غنى يعطى عباده من فيض نعمته من غير من ولاأذى (حميد) محمود في كل مايأتى ومايذر.

- فى قـوله تعـالى: «ولو أن مـافي الأرض من شـجـرة أقـلام... الآية تصوير رائع يدل على اتساع علم الله تعالى وامتداده قال تعالى: قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً»[١].

وهى صورة تدل علي اتساع علم الله تعالى وشموله وإحاطته بكل ماكان ومايكون إلى أن تقوم الساعة.

- فى الآية: مـاخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة[٢].. إنما أمـره إذا أراد شيئاً أن يقولو له كن فيكون...» بيان وإظهار لقدرة الله تعالى فى خلق السموات والأرض ومابينهما دون مشقة أو عناء، ودون حـاجة إلى زمن فى ذلك فـأمره تعـالى بين الكاف والنون.[٣] قدرة الله تعالى وعزته.

---

(١) سورة الكهف الآية ١٥٠.
(٢) سورة
(٣) سورة

- فى تصوير الآية لتعاقب الليل والنهار جاءت الكلمة يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل فى تصوير بيانى وتعاقب مستمر حسب الفصول كأن أحدهما يدخل فى الآخر .
واستعمال كلمة - سخر ومعناها- كلفه عملاً بلا أجر ولايكون ذلك إلا إذا كان من مصدر القوة والسطوة دون مراجعة أو استبطاء ومن قدر على ذلك فهو عالم بأسرارهم وبما يعملون وذلك مظاهر الكون للإنسان كى يستفيد منها ويقر بالعبودة لله تعالى .
- فى هذه الآية تأكيد بأن الله تعالى هو الحق الثابت وسواه من المعبودات باطل وهباء وأنه العلى الكبير .

- ولاشك أن من قدر على المظاهر السابقة فى الآية جدير بأن يكون العلى الكبير ولاكبير سواه وفى الآية طباق .. وفى قوله تعالى: «ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر...». تصوير لحال قوم ركبوا سفينة في البحر، وتلك آية من آيات الله تعالى قال الله تعالى: «الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار».

ولنا أن نتصور سفينة غاصة بركابها بحدوهم الأمل فى وصولهم إلى مايريدون الوصول إليه، ولكن سرعان ماينقلب بهم الحال ... تتغشاهم الأمواج من كل ناحية وتصور الآية ذلك فتقول «فإذا غشيهم موج كالظلل» ولنا أن نتخيل روعة التصوير في قوله تعالى وتصويره للموج وقد غطى الفينة كأنه ظلة واختيار الألفاظ الموحية مثل لفظة - غشيهم - كالظلل .

وكأن الله تعالى أراد ابتلاءهم فى سفرهم فأمر الماء أن يضطرب علواً وسفلاً ويلعب بالسفينة ويضطرب أمر المسافرين على ظهرها

ويشرفون على الموت ولايكون أمامهم إلا التضرع والدعاء وإخلاص النية له تعالي طلباً للنجاة، وحين تتحقق لهم تلك الأمنية العزيزة ويصلون إلى بر النجاة يكون منهم المؤمنون ومنهم الكافرون الجاحدون..

وفى الآيات ألفاظ موحية مثل: منهم مقتصد.. ، ويجحد، وختار كفور» وهى تدل على تنوع الناس بين الهداية والكفر وفق اختيار الإنسان لنفسه وهداية الله تعالى له.

- وفي قوله تعالى: يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزى والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئاً...» تحذير للناس فى الدنيا من يوم الهول والحساب - يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» ونهى عن الاغترار بالدنيا وعن اتباع غواية الشيطان...».
- فى قوله تعالى: «إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام - إظهار لإحاطة علم الله تعالى بما خفى ودق من الأمور التى لايحيط بها سواه وهى مفاتيح الغيب ... ثم يكون ختام السورة بتأكيد علم الله تعالى وخبرته بكل مافى الكون من مخلوقات .

وماذاك إلا لأن الكون وماحوى من كائنات هى من صنعة وهو البارئ لها ... وصدق الله تعالى إذ يقول: «هو الله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لاإله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» .

وهكذا نجد الآيات القرآنية فى هذه السورة عامرة بالحكم والعظات والعبر والتوجيهات .

هى فيض ثر ونور ساطع تتلألأ فى جوانبه أنوار الهداية ويحس فيه المؤمن برد الإيمان ونور اليقين وفيه تحذير من غواية الشيطان وأن مآلها الخسران ... ولايخفى فى سورة لقمان مظاهر قدرة الله تعالى.. وكم هى شامخة ورهيبة ومهيبة تلك الجبال مثلاً وأين منها الإنسان ولكن قدرة الله تعالى جعلتها على شموخها وقوتها وجبروتها وتنوع أشكالها وارتفاعها وكثرتها ... شيئاً يلقى ..

ولكنها بالنسبة إلى قدرة القادر جل وعلا كائن .. ألقى في الأرض ليصير - رواسى .. يحفظ توازن الأرض كيلا يختل توازنها.. وتهتز بمن عليها .

وإذا كنا نقول عن أمور الدنيا الدنية التى نحياها «قيمة كل امرئ مايسديه» فما شأن الجبال تلقى ... وماكنه ومدى قدرة تلقى بالجبال الرواسى في سلاسلها التى لاتخفى .

ولانقول الجبال فهناك ماهو أقل وأذل من الجبال وهو الذباب لم تستطيع الآلهة التى يعبدونها من دون الله أن تخلقه بل إن تلكالآلهة التى يعبدونها من دون الله لاتستطيع أن تستنقذ من الذباب شيئاً سلبه الذباب منها فسبحان الله جلت قدرته وتوحدت ذاته وصدق الله العظيم إذ يقول : «فاعتبروا ياأولى الأبصار». أفمن يخلق كمن لايخلق أفلاتذكرون قال الله تعالى: «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له.. وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه .. ضعف الطالب والمطلوب ...» .

فسبحان من بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون» .

الإعجاز الأدبى فى سورة لقمان:

فى سورة لقمان إعجاز أدبى مما يسر الله تعالى معرفته لنا ويشتمل على مايلى :

١ - إعجاز فى الأسلوب وبلاغة فى الأداء :

ويمثل ذلك فى بدء السورة وغيرها فى العديد من السور القرآنية بحروف مقطعة يكاد من يقرؤها لايصل إلى مفهم معنى بعد نقطها إلا أن ذلك كان لحكمة يعلمها الله تعالى وهى آية من آيات التحدى ..، وبالرغم من اختلاف المفسرين فى إيراد معنى لها فمن قائل إنها اسم للسورة، ومن قائل إنها سر الله تعالى في كتابه ولله تعالي فى كل كتاب من كتبه سر فهى من المتشابه الذى إنفرد الله تعالى بعلمه، ولايجوز لنا أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت .

وقيل إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ماشاء وأطلعكم على ماشاء، فأما مااستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به، ومابكل القرآن تعلمون ولابكل ماتعلمون تعملون ...

ومن الإعجاز فى الأسلوب والبلاغة فى الأداء أيضاً كان تنزيل القرآن الكريم وقد حوى ألفاظاً موحية وتعبيرات بلاغية يعجز عن مثلها أبلغ البلغاء منها ماسبق فى بدء السورة ...

ومنها أيضاً - كان لفظ الإشارة للبعيد فى قوله تعالى - تلك للدلالة على المنزلة العظمية لآيات القرآن الكريم وتنكير آيات للدلالة على العظمة والكثرة «أل» فى قوله «آيات الكتاب» للعهد أن

الكتاب المعهود المنزل من عند الله تعالى ووصفه «بالحكيم» لما حوى من حكم ومواعظ وهداية وإرشاد واستعمال وصف القرآن الكريم «هدى ورحمة» للدلالة علي الهدف الأسمى من نزوله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولعلنا نلمس الإيجاز فى حذف المبتدأ فى قوله تعالي «هدى« ورحمة» كما أن اهتدى من الناس بماجاء في الكتاب الحكيم كان تعبير الله تعالى عنهم بـ«المحسنين) والمفلحون) دلالة على الفوز والسعادة وتحقق الثواب ولما كان الإسلام دين الله تعالى إلى الناس كافة إلا أن الناس يتفاوتون فى القبول به فمنهم المحسنون والمفحلون الذين وردت صفاته فى الآيات السابقة .

كما أن منهم من هو يعكس ذلك وهو يفضل الباطل على الحق يكون قصده إفساد حياة الناس وعقائدهم وذلك يكون فى كل زمان ومكان وكان تعبير القرآن بألفاظ موحية للدلالة على ذلك ورد لفظ الاشتراء .

ولهو الحديث - ليضل - وسبيل الله - بغير علم وهزوا ويكون جاء الله تعالى لهم ... وهو العذاب المهين ..

ثم يكون تصوير القرآن الكريم لموقف الكافرين من القرآن الكريم حين يتلى ويتجدد موقفه من خلال سلوكه المتمثل فى الفرار بقوة من الاستماع إلي آيات القرآن الكريم كما تصوره الآيةوقد اجتمعت عليه النقائص جميعاً حين سماعه القرآن الكريم وهى بين الفرار الذى لايكون عادة إلا من عدو يخشى منه ولايمكن مقاومته ثم الاستكبار وهذا التصوير يجسد التناقض فى شخوص الكافرين تجاه القرآن الكريم .

ثم تتابع الآيات تصوير حال بعض الكافرين حيث يكونون في سلوكهم تجاه القرآن كأن لم يسمعوه وكأن الصمم قد أصابهم وهم بذلك لايميزون ولايسمعون ويكون قد حق عليهم قول الله واستحقوا ماأعده لأمثالهم من الكافرين والجاحدين حيث قال الله تعالى فيهم «إن شر الدواب عند الله الصم إليكم الذين لايعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون...» .

٢ - **إعجاز في المضمون:** وتمثل ذلك فى الحديث عن معجزة خلق السموات ورفعها دون أن يكون هناك عمد ترتفع فوقها. خلق السموات بغير عمد ترونها وقال تعالى فى آية أخرى «والسماء رفعها ووضع الميزان»[1] .

ولقد وجه الله سبحانه وتعالى الناس إلى النظر فى ملكوته وآيات قدرته فى كثير من آياته قال تعالى: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلي الجبال كيف نصبن» وكل تلك التوجيهات ولفتاً للنظر إلى قدرة الله تعالى فى خلق السموات والأرض ومابينهما ومنها الجبال التى خلقها الله سبحانه وتعالى من أجل إرساء الأرض وتثبيتهاه كيلا تضطرب بأهلها على وجه الماء .

ثم بث فيها من أصناف الحيوانات وسائر المخلوقات مما لايعلم عدده وكنهه إلا خالقه جل وعلا ..

٣ - **القرآن الكريم كتاب يتميز بالحجة والإقناع لكل من أراد العناد والكفر بالله تعالى والجحود بنعم الله تعالى** بالرغم من الآيات الظاهرة والدلائل البينة على قدرة الله تعالى وإرادته .

---

(١) سورة الرحمن - الآية ٧ .

وقد جاءت آيات سورة لقمان الكافرين بما يفحمهم ويلحق الخزى بهم إن استمروا على عنادهم وكفرهم - وقد يؤدى إمتناع من أراد الله تعالى له الهداية وتمثل ذلك فى الآية التى تحدثت عن قدرة الله تعالى فى خلق السموات والأرض وكون السماء بلا عمد ثم التعبير القرآنى بالنسبة للجبال التى تخيف لهولها البشر وكم من المجهودات والأعمال الشاقة التى تقوم بها الدول من أجل التغلب على الجبال وتذليلها والاستفادة منها .

إلا أنها بالنسبة للخالق جل وعلا كان تعبير القرآن الكريم قوله تعالى- وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم... » .

وإذا كانت الدول والهيئات تتحمل الشاق من أجل التغلب على الجبال لمجرد الاستفادة منها والله سبحانه وتعالى يقول عنها: وألقى فى الأرض رواسى هذه الصورة البيانية العظيمة التى تجعل من الجبال ذوات الارتفاع الشاهق كأنه حجر يلقى والشأن فيما يكون ملقى أن يكون هيناً دليلاً وهو كذلك بالنسبة للمولي جل وعلا .

وذلك دليل القدرة التى لاحدود لها والإرادة التى لايدرك كنهها فمن سماء بغير عمد إلى رواسى كيلا تميد الأرض إلى مخلوقات قل أن يحيط بها أو بكنهها محيط وهذا خلقه وآثار قدرته فالواجب على كل ذى عقل أن يقر ويسجد لله شاكراً معترفاً بقدرة الله تعالى وإرادته .. ثم يكون التحدى من الله تعالي للمنكرين والجاحدين فى الآية التالية حيث يلفت نظر المعاندين إلى قدرة الله تعالى وعجز الأنداد عن آن يأتوا بمثله ثم يوجههم إلى أن ينظروا فى ملكوت الله ليروا عجائب مخلوقاته ثم يكون أمر الله تعالي للجاحدين أن يظهروا للناس آثار قدرة الأنداد والآلهة التى يعبدونها من دون الله إن كان صادقين .

وذلك أسلوب عظيم فى المحاجة والبيان تمثل فى إظهار آيات قدرة الله تعالى ولفت الأنظار إليها ثم مطالبة الكفار والجاحدين والمعاندين بالإتيان بمثلها أو مايقابلها وهيهات أن يكون هناك فى الكون من يخلق كخلق الله تعالى وحينئذ يحق لكل منصف أن يردد قول الله تعالى «أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تعلمون»[1] .

٤ - لقد تضمنت آيات سورة لقمان إعجازاً في المضمون ، وذلك أن آيات السورة اشتملت حكماً عظيمة وتوجيهات ربانية بليغة قصد منها خير الإنسان وهى حكم لم ترد فى الكتب السماوية المنزلة قبل القرآن وظهر ذلك من خلال النص القرآنى فى إيراد الايات حيث لم يتحدث النص القرآنى عن أن هذه الحكم قد وردت فى الكتب المنزلة قبل القرآن ولقد قال الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم .. «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده... » .

وقال الله تعالى «وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين. وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوارة ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين»[1] .

وهكذا نجد القرآن قد أورد ذكر موسى وعيسى وأحمد على التتابع وبين منزلة كل منهم، أما بالنسبة للقمان عليه السلام فلم يتقدمه فى موضعه أى من الرسل ولاالكتب .

---

(١) سورة المؤمنون الآية

(٢) سورة الصافات الآية .

٤ - في الآيات بيـان لآثار عظمـة الله تعـالى وقـدرته فى ملكوت السموات والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر وإذا كانت الآيات قد تحدثت عن السموات وكيف أن الله تعالى قد خلقها بلا عمد وألقى .. يالها من كلمة خصوصاً إذا فطنا إلى الملقى .. الرواسى سلاسل الجبال فـياالله للقـدرة والإرادة والعظمة والرحمة والرأفة والحب الخالص من الله تعالى لعباده، ثم هذه الآيات وحديثها عن تسخير الله تعالى لبعض مخلوقاته من أجل نفع الإنسان .

فقد سخر الله تعالى الأرض وذللها للإنسان.. هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فـامـشـوا فى مناكـبـهـا وكلوا من رزقـه وإليـه النشور»[1] وكذلك كان من مظاهر قدرة الله تعالى وعظمته تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر كل ذلك نفعاً للإنسان قال الله تعالى: «الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار» .

وقـال تعـالي : «وسـخـر لكم الليل والنهـار والشـمس والقـمـر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرأ لكم فى الأرض مـخـتلفـاً ألوانه إن فى ذلك لايات لقـوم يذكـرون.. وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون:

---

(١) سورة الملك الآية .

٦ - ظهر من خلال الايات جهالة الكفار والمعاندين وإغماضهم أعينهم عما خلقه الله لهم من نعم لاتعد ولاتحصى وتقليدهم لآبائهما في عبادة غير الله تعالى دون أن يفكروا بعقولهم وينظروا فيما حولهم ليروا أثار قدرة الله تعالى ولكنهم ضلوا وتاهوا وقالوا لانتبع ماجئت به من عند الله بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا وهم لايعلمون أنهم بذلك يجيبون دعوة الشيطان إلى عصيان الله تعالى وجزاؤهم النار المتقدة على الدوام .

٧ - في تحذير من العذاب بينت الآيات أن كفر الكافرين ينبغي ألا يؤدى إلى حزن الرسول الكريم لأن مآلهم إلى الله تعالى فينبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولافي السماء ومهما طالت أعمارهم فهى قصيرة ولذا كان التعبير عن حبهم للدنيا وإقبالهم عليها مصدراً بقوله تعالى: «نمتعهم .. قليلاً» فالدنيا جنة الكافر وجحيم المؤمن ... بالقياس إلى المشاق التى يتحملها كل منهما فيها وصبر علي أذاها وغواية الشيطان وطاعة الرحمن.
ولو نظر الله إلى الدنيا جناح بعوضة ماسقى الكافرن منها جرعة ماء ثم يكون جزاؤهم شديداً في الآخرة جزاء ماشتروا بهما متع الحياة الفانية .

٨ - في تأكيد على ملكية الخالق جل وعلا للكون أرضه وسمائه ومابينهما كان القصد في قوله تعالى: لله مافى السموات والأرض ثم التأكيد في قوله : إن الله هو الغنى الحميد .
فبينما تؤكد الآيات ملكوت الكون لله تعالى يأتى التوكيد للدلالة علي عدم احتياج المولي جل وعلا إلى ذلك الملك

والملكوت وهذا هو الفارق بين ملكية الله تعالى للكون وملكية سواه من الملوك الفانين فى الدنيا وهات لى مالكاً لأى من حكام الدنيا الزائلة عنه أو الزائل هو عنها يعلن عن رغبته فى الاستغناء عما ملكت يداه .. ولكن شتان ....

٩ - فى الآيات تعبير وتصوير لعظمة الله تعالى فى أمور كثيرة منها أن كلام الله تعالى لاينفد ولو كانت الأشجار أقلاماً والبحار مداداً وأن النفوس كلها بيد الله تعالى حياتها وموتهاوأن النفوس كلها فى حيائها وبعثها أمرها فى هاتين اللحظتين كأنها نفس واحدة .

١٠ -فى الآيات إعجاز وبيان لقدرة الله تعالى فى تتابع الليل والنهار والتصوير البيانى في جعل كل منهما كأنه يدخل فى الآخر .

١١ -تصوير حياة الناس وهم آمنون فإذا أصابهم الخطر فروا إلى الله تعالى طالبين النجاة فإذا حدثت النجاة كان هناك المؤمن الحق والمعاند الجاحد .

١٢ -التأكيد على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد وماسواه لاشئ؛ فقد اتصف سبحانه وتعالى بالعلو الذى لايتطاول إليه كائن من كان وهو الكبير الذى يتصاغر دونه الكون كله .

١٣ -فى الآيات تقرير لبعض الأمور التى لايعلمها إلا علام الغيوب منها: قيام الساعة . قال تعالى: إلى ربك منتهاها إنما أنت

منذر من يخشاها.. لاتأتيكم إلا بغتة..» وينزل الغيث..
والعلم بما فى الأرحام من كل مايتعلق بها من وقت الحمل إلى
خروجه إلى كل مايتعلق به .
التعمية على الإنسان بما يصيبه في يومه وغده من خير أو شر
وبأى مكان تكون منيته كل ذلك فى علم الله تعالى .

- هذه السورة بها إعجاز يلامس الروح بما تضفيه السورة على سامعها وقارئها من جلال الله وهيمنته وقدرته وسلطانه العظيم، وبما تدعو إليه من الإيمان والتوحيد وبما يملأ قلب الإنسان روعة وخشوعاً لله تعالى .

والله أسأل أن يوفقنا ويهدينا سواء السبيل ،

د. سالم عواد السيد حشيش

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه - ابن رشيق القيروانى دار الجيل بيروت - لبنان - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .
- تفسير القرطبى أجزاء مخلتفة .
- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى الألوسى - دار الفكر بيروت ط١٩٧٨م .
- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير .
- شرح المعلقات السبع - الزوزنى .
- البلاغة الوافية - د. محمود شيخون .
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - ابن هشام .
- مختار الصحاح - الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازى .
- المعجز الوجيز .